من مظاهر إعجاز القرآن خلود اللغة العربية

بقلم قسم تفتيش اللغة العربية والتربية الدينية - الكويت

ليس من شك فى ان التلازم وثيق بين الاسلام وانتشار اللغة العربية ، لكن درجة هذا التلازم تختلف باختلاف الاحوال والاماكن التى تنتشر فيها اللغة او ينتشر الاسلام ، ولكي يكون الأمر محددا فلابد من التفريق بين حالين هما :

نشر الاسلام فى عصره الاول على يد الصحابة المجاهدين ودعاته من الفاتحين ، ومحاولات نشره الآن بين من يؤمنون به عقيدة ، ولكن ينقصهم الالمام الوافى بتعاليمه ومبادئه ونظمه وتشريعاته او بين من لا يؤمنون به او بغيره من الاديان ممن يمكن تشبيههم بالوثنيين .

اما نشر الاسلام فى عصره الاول على يد الصحابة المجاهدين ودعاته من الفاتحين ، فقد استتبع نشر اللغة العربية ، لان الذين حملوا الاسلام الى غيرهم ممن لا يتحدثون العربية ــ حملوه سلوكا وعدالة ومثلا استهوت الامم الاخرى قد خلف فى الاسلام ، ثم رغب ابناؤها ان يعوا هذا الدين وعيا كاملا ، ويساهموا فى بناء دولته ، فتعلموا العربية لتكون صلتهم بكتاب الاسلام ونبيه مباشرة ، ومن هنا كان انتشار الاسلام سببا فى انتشار اللغة العربية .

وشاهدنا على ذلك مصر والشام والعراق وبلاد فارس (كذا!) من البلدان التى لم يكن ابناؤها يتحدثون العربية ، فانها بدخول الاسلام اليها واعتناق ابنائها له اقبلت على العربية، فجعلتها لغتها وهجرت لغات كانت تتحدثها قبل العربية، ولم يكن قضاء اللغة العربية على ما قبلها من لغا ت خاضعا لسنن الاندثار اللغوى ، بل كان امرا يخالف المألوف فى هذا الشان مما يقطع بأن الاسلام كان السبب المباشر فى انتشار اللغة العربية .

وفى هذا الجانب لا يمكن ان نتخيل فى عصر الاسلام الاول ان اللغة العربية كانت السبب فى نشر الاسلام ، لان سر انتشار الاسلام اصيل فيه مرتبط بقيمه وغاياته لا يرتبط بلغة ما ، وعلى هذا فلو ان الاسلام حمله قوم الى غيرهم بلسان غير عربى ، ولم يبدلوا من جوهره او ينقصوا من كماله لتهيأ له الانتشار بل ان واقع الاسلام الآن فى كثير من البلدان التى لا تتحدث العربية يؤكد هذا .

وقد نتصور ان **المستوى البلاغى الرفيع للقرآن** الكريم فى اللغة العربية **كان سر الاعجاز** ، وبالتالى كان **سر انتشار الاسلام** الا ان هذا التصور لا يمكن ان يستساغ الا فى مجتمعات تتحدث العربية قبل معرفتها القرآن الكريم، وما التزمه دعاته اليها من

تحل بكل ما جاء فى القرءان من خلق كريم ، ولا شك ان هذه المجتمعات لم تدرك بلاغة القرآن وروعة بيانه للنبي عليه السلام الا فى مرحلة متأخرة .

واما محاولات نشر الاسلام بين من يؤمنون به ، ولا يتحدثون العربية لتعريفهم بحقائق الدين وتفصيل احكامه ، فان الامم التى على هذا النحو نوعان :

1) امم انسلخت عن اللغة العربية منذ عهود بعيدة بدوافع ذاتية لا تتصل من قريب او من بعيد بعض ابنائها للاسلام ، ومثل هذه الامم لايرتبط انتشار الاسلام فيها بانتشار اللغة العربية ، او بالاحرى لا يرتبط الملم ابنائها باحكام الاسلام المفصلة بمعرفتهم للغة العربية ، لان لغتهم التى يتحدثونها تكثر فيها الكتب التى تتحدث عن الاسلام ، ويكثر فيها العلماء الذين يعرفون الى جوار لغتهم لغة القرآن

ويمكن لهؤلاء ان يكونوا همزات الوصل بين المسلمين وبين المصادر العربية لدينهم، وكل ما تحتاجه مثل هذه الامم لانتشار الاسلام ان تقوم فى جامعاتها اقسام تتوفر على دراسة اللغة العربية والاسلام حتى نضمن الا ينقطع المورد الذى يمد هذه الامم بالدعاة الذين يجمعون بين الثقافة العربية وثقافة اممهم ، ولا نستطيع ان نعلق انتشار الاسلام فى هذه البلدان على انتشار اللغة العربية بها فى زمن يرتفع فيه صوت الوطنية مما يدفع كل امة الى التمسك بلغتها ، وليس ببعيد عن الاذهان امثلة لذلك ايران وافغانستان وباكستان والهند .

2) وامم اخرى لم تنسلخ عن اللغة العربية او تحاول الانسلاخ عنها ذاتيا ولكن اريد لها بفعل استعمارى مكير ان تتخلى عن العربية ، وحملت على ذلك مرغمة ، وظل بأبنائها الحنين الى اللغة العربية متمثلا فى بقايا المعاهد الاسلامية ، وفرضت عليها لغات الاستعمار ، وهى لغات لم تكتب بها حقائق الاسلام على صورة تمكن من نشره والتعريف به ، بل كل ما كتب كان على لسان المستشرقين المتعصبين يدسون للاسلام، ويكيدون له ... مثل هذه الامم يرتبط نشر الاسلام والتعريف به فيها بنشر اللغة العربية بل ان نشر اللغة العربية فيها يكون فريضة تعادل نشر الاسلام وليس التلازم بين نشر الاسلام ونشر العربية فى هذه البلدان حينئذ تلازم ابتداء يمكن ان يكون سببا فى تعميمه على سائر المجتمعات التى تريد نشر الاسلام فيها ، بل هذا التلازم اشبه ما يكون بحتمية العودة الى طريق مألوف يسهل سلوكه عن طريق محفوف بالمخاطر، ومن الواضح ان المثال القائم فى الاذهان لذلك دول المغرب العربى التى ارغمت على هجر لغتها .

واما اولئك الذين لا يعرفون لهم دينا ، فنشر الاسلام بينهم يتوقف على تربية رعيل من الدعاة المؤمنين المجيدين للعربية ولغيرها من لغات الامم التى يراد الابتعاث اليها ، على ان يقوموا بهداية الناس ، سبيلهم الى ذلك الحديث اليهم بلغتهم ، ثم يأتى بعد ذلك تعليم اللغة العربية للراغبين منهم .

على ان هناك امرا لابد من الاشارة اليه هنا ، وهو انه لا يمكن للاسلام ان يستتبع انتشار اللغة العربية لو انتشر فى امم لا تتحدثها ، لانه لا يغيب عن الخواطر ابدا ان اقبال الناس على اللغة العربية فى بقاع باسرها ، بعد دخول الاسلام اليها ، كمصر والعراق وشمال افريقيا ، كان له اسباب اخرى الى جوار التعلق بالاسلام؛ تلك الاسباب هى اندماج الدعاة بأبناء هذه الدول مصاهرة ومعايشة ، ثم تمثيل هؤلاء الدعاة المتحدثين بالعربية لسلطة دولة تتخذ العربية لغتها الرسمية من مكاتباتها وارشاداتها، و انضواء الداخلين فى الاسلام تحت لواء الدولة العربية ، وحرصهم على ان يأخذوا مكانهم فيها ، وسعة صدور الحكام العرب من المسلمين للاستعانة بالراغبين فى خدمة الدولة الاسلامية ما داموا يجيدون العربية .

وقد راينا انه **حين انحسر ظل الدولة عن بعض البلدان هجرت العربية** ولم تعد تدرس الا فى المعاهد العلمية المتخصصة فى دراسة الاسلام .

الوعي الاسلامى واللغة العربية

وحين نتحدث عن مدى ارتباط الوعي الاسلامى والوازع الدينى قوة وضعفا باللغة العربية فى قوتها وضعفها ، نحب ان نحدد مدلول الوعي الاسلامى والوازع الديني ، فالوعي الاسلامى على ما نرى ادراك شامل للاسلام ، ومعرفة بمواقفه من مشكلة الحياة فى كل جوانبها .. والذى لا شك فيه ان الوعي الاسلامى فى هذا المعنى يقوى بقوة اللغة العربية وحياتها على السنة المسلمين ، لانهم جميعا يستطيعون فيما يعرض لهم من المشكلات ان يرجعوا الى القرآن والسنة والبحوث الاسلامية فى شتى المجالات ادبا وفقها وتوحيدا .

كما يضعف بضعفها لعجز الناس حينئذ عن ان يفهموا ما يقراون ، والازهر الشريف وغيره من المعاهد العلمية التى تعنى بدراسة اللغة العربية على مستوى

رفيع يمثل هذا الامر ، فالدارسون فيه وفى هذه المعاهد اكثر وعيا بالاسلام من سواهم ممن لا يجيدون العربية .

اما الوازع الدينى فهو حياة الدين فى الضمير واستلهامه فى كل ما يواجه المرء ، وهو امر لا يرتبط باللغة العربية فى قوتها وضعفها ، بل هو مرتبط اشد الارتباط بصدق الانسان فى معتقده ويقينه فى ايمانه، واستواء ظاهره بباطنه، وكم من امم يغلب على افرادها تقديس دينهم واحترام تعاليمه وحظها من العربية آيات من كتاب الله تصح بها صلواتها وتستقيم عبادتها .

لغة القرآن وتاثر اللغات واللهجات غير العربية بها :

وقد تاثر كثير من اللهجات واللغات الاقليمية فى البلاد اسلامية التى تتحدث غير العربية بالفكر الاسلامى عن طريق لغة القرآن فشاعت الفاظ عربية فى ثنايا هذه اللغات ، وبقيت لها دلالاتها ونستطيع ان نقدم بعض الامثلة الموجزة توضيحا لذلك على النحو التالى :

الفارسية : وفيها الكثير من الكلمات العربية ذات المدلول الدينى مثل: القرآن الكريم ـ الزكاة ـ الحج ـ الخمس ـ فسق .

زنجبار : ولغة سكانها السواحلية وقد دخل اليها كثير من الالفاظ العربية عن طريق الرحلات العربيةالتجارية لعرب الخليج والتى قاموا خلالها بعبء نشر الاسلام فى افريقيا الشرقية ، ومن امثلة هذه الالفاظ :

السلام عليكم وردها ـ صباح الخير ـ كذلك ـ بعض ـ الحج ـ الزكاة ـ امام ـ كتاب ـ مصحف .

موريتانيا : ويتحدث سكانها باربع لغات هى (فلانية ، سرقولابية ، وولوفية ، حسانية) وفيها جميعا كلمات عربية ، واكثرها استيعابا للكلمات العربية هى اللغة « الحسانية » ومن امثلة الكلمات العربية التى لا زالت فى اللغة الموريتانية (فلانية)

الحج ، النبى ، حلقوم ، هدر ، السكاة (تحريفا عن الزكاة) ، المام (تحريفا عن الامام) ، دفتر (الكتاب) قران (بالمد) تحريفا عن قرآن .

اريتريا : وفيها سبع لهجات ، وكثير من ابناء اريتريا يعجزون عن التفاهم فيما بينهم لاختلاف اللهجات التى يتحدث بها كل منهم ، فتكون اللغة العربية وسيلتهم الى التفاهم ، ومن الالفاظ العربية فى لهجات اريتريا : ـ صباح الخير ، السلام عليكم ، كافولك (تحريفا لكيف حالك) انتصركم بمعنى هل انتصرتم) معطن لمورد الابل ، صليكا بمعنى هل صليت ، الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء لاوقات الصلاة ، لالى اسما لليل ، نهار ، حموك ، كذاب ، صادق ، فاسق ، اسلام ، اسلامای للمسلم ، الحمد لله ، دعاودى بمعنى ادعو ان شاء الله .

اللغة العربية فى الكويت

اما من حيث المكانة التى يجب ان تحتلها اللغة العربية هنا فى الكويت الى جانب غيرها من اللغات الاجنبية فهي المكانة التى تحتلها حاليا ، وهي انها اللغة الرسمية واللغة الاولى ولغة الدراسة والحديث بين الناس ، ولغة اجهزة الاعلام وذلك امر ليس مجال تساؤل بالعربية لغة هذه المنطقة منذ عرفت فيها حياة ، والاسلام دين ابنائها .